مجرة

MAJARRAH

فصلية إبداعية نقدية

ضمن العدد

ملف خاص

عن القاص

الراحل

مبارك الدريبي

1998

احتفل

عبد الكريم غلاب

قبل نحو شهر باليوم العالمي للكتاب. وهو تقليد ابتدئ العمل به قبل بضعة أعوام. والاحتفال باليوم العالمي لقيمة من القيم كحقوق الإنسان مثلا، أو لقضية من القضايا كالعداء، أو شيء ما كالشجرة.. لا يشعر بالأهمية فحسب، ولكن يشعر بالخطر الذي يهددها. والاحتفال تحسس بالوقاية من الخطر ومقاومة زحفه. ولعل الذين اقترحوا الاحتفال باليوم العالمي للكتاب استشعروا الخطر الذي يهدده حتى أصبح معرضا لما لم يتعرض له في تاريخ حياته، وهو تاريخ طويل يتزامن مع تاريخ الفكر في العالم الذي عاش فيه الفكر.

والذين قاموا بهذه المبادرة لم يكونوا من بين المهتمين بالكتاب فيما يسمى العالم الثالث، الفكرة جاءت

من العالم الأول، وهو عالم لا يزال الكتاب يحظى فيه بالمكانة التي يؤهلها له انتشار الثقافة والعلم وارتفاع مستوى الحياة، والتقدير المتزايد لما للكتاب من أثر في النمو الفكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، والارتفاع بمستوى الحياة العقلية والروحية والإنسانية. ومع ذلك اهتدى إحساسهم إلى الخطورة التي تهدد الكتاب نتيجة الدراسة الميدانية والإحصائية عن إنتاج الكتاب وارتفاع مستواه وطباعته وتوزيعه وقراءته ولغاته، وظهور تقنيات الاتصال الحديثة التي تطارد الكتاب وتغني عنه. وتجعل منه أداة متخلفة لنقل المعرفة، أو أداة فائضة عن متطلبات الحياة من الخبز حتى التفكير في رحلة إلى المريخ.

في بلاد العالم الثالث وقع الكتاب زمنا طويلا تحت ضغوط التخلف والأمية والجهل وانخفاض المستوى الاقتصادي والاستعماري ومصادرة الحريات (ومنها حرية الكتابة والقراءة) ومقاومة اللغات الوطنية وقيود النقل والتجارة. ومن هذه الضغوط جميعها تسرب إهمال الكتاب وقلة الاهتمام بالقراءة.

كان القدماء - النخبة المتعلمة منهم - يعنون بالكتاب وينفقون بعض ما يملكون من ضياع أو متاع أو مال ليستنسخوا الكتاب أو يشتروا نسخة من متعلم دفعته حاجة الخبز إلى بيع الكتاب. كان بعضهم « يدخر » ليزداد علما، حتى إذا ازداد فقرا لجأ إلى ما ادخر من كتب ففكت عن معدته الجوع كما فكت عن عقله الجهل. ولم تكن للكتاب خطورته إلا عندما يضيق الفقهاء بكتب الفلسفة مثلا، أو يضيق الحكام بعقل عالم فلا يصادرون الكتاب، وإنما يقيمون له محرقة في الساحة العمومية، يلتف الناس حولها في مقدمتهم بعض العلماء وطلاب العلم و « نائبة » السلطة. ويكتب التاريخ : أن السلطة عاقبت فلانا لزندقته أو هرطقته فأحرقت كتبه.. وقد شاهدت بأم عيني كتبا يساق محاطا بأعوان السلطة إلى مخزن مكتبته يبحثون فيها عن كتاب يلغيهم أنه من شأنه أن يهدد الأمن العام. وكان الناس يتابعون المرسمية، دون أن يصدر عن بعضهم صفير، ولكن دون أن يهتم أحد بالتصفيق. منظر كان يجري ولم يشهد الناس مثيلا له وأعوان السلطة تحيط بتاجر مخدرات « الكيف » ويساق إلى حيث يفرجون عنه بعد حين - بعد أن يصادروا « البضاعة » أو لا يجدون ما يصادرون - فيعود إلى ممارسة حياته « التجارية » فذلك خبزه.

الكتاب بعد ذلك أخذ مكانه في تهديد الأمن العام. وإذا كانت بعض المجتمعات تقيم له محرقة في الساحة العمومية، فإن بعض مجتمعات اليوم تحاول أن تقيم لصاحب الكتاب جلسة عمومية يفرق فيها القاضي بين

الكاتب وبين زوجه، ثم يستشاب ثلاثا، وإلا...

ولا يزال الكتاب يخضع للمطاردة إن لم يكن عن طريق اللهب أو بالسيف حدا، فعن الرقيب وقلمه الأحمر، ففي بعض البلاد العربية لا يزال الكتاب يخضع لجواز مرور يمضيه الرقيب بقلمه الأحمر (مغموس في دم الكتب)، ولو جاء الكتاب محمولا من بعيد على ظهر سفينة أو طائرة أو حمار.. وقد يكون مر في بلاد المصدر على قلم أشد صرامة وأكثر طاعة للقانون.. ونقد - مع ذلك - إلى حيث الصراط غير المستقيم.

فهم محرقة أخرى ليست بالنار المقدسة، ولكنها بالعقل المتحجر الذي لا يزال يخشى الكتاب والصحيفة وكل فنون القول والحرف.

وتنتصر « الحرية » مع « حقوق الإنسان » ومنها حق الحرية في التعبير، ويحجم البعض عن إقرارها وإمضاء ميثاقها ليس خوفا من الفكر أن يتحرك فحسب، ولكن خوفا من أن يتحرك فحسب، ولكن خوفا من أن يتحرك به قلم على صفحة من ورق. ويبقى الكتاب « يضج » على نار غير هادئة حتى يجد طريقه إلى الححيم.

هذا ماض - حاضر عاشه الكتاب الذي يكتب بعربية أو بلغات غير عربية، ولكنها غير غربية، ويستجير أحيانا باللغات المتحضرة فيعيش مكرما معززا، ولو ضم هجرا من القول تحميه اللغة التي يحترم أهلها القانون وحقوق الإنسان وفكر الإنسان.

غير أن محرقة أخرى تنتظر الكتاب، تأتي هذه المرة في تقدم وسائل الاتصال ونقل المعلومات، تضايق الكتاب مقروءا ومكتوبا، وتضايقه تقنيا وموزعا ينقل العلم والمعرفة والذوق والمتعة وكل الأبعاد الفكرية والإنسانية والفنية. التلفاز بصور المقولات والمحسوسات والموصوفات، وتستبطن الآلة المصورة أحاسيس البشر والحيوان، وهيام الجسم وإحساس الحس، وتفضح المخبوء حياءا ووقارا واحتفاظا بما في الذات للذات، وتكشف خصوصيات الرجل والمرأة والعائلة لكل رجل وامرأة وطفل وطفلة وعائلة، وتثير فضول الآخر فيما لك وليس لغيرك فتعطيه أكثر مما يطلب، وتمنحه أعز ما يطلب، فيها من الصخب أكثر مما فيها من الفن، وفيها من التهريج أكثر مما فيها من الذوق، وفيها من الاستلاب أكثر مما فيها من التشويق. ويجلس الرجل والمرأة والطفل والطفلة أمام التلفاز حتى يأخذ النوم بثلاثيب عقولهم وعيونهم فيجتذبهم الفراش، ولو ظلوا نائمين أمامه يتحدث لقوم نامت عيونهم وأحاسيسهم جميعا، دون أن يتبادلوا فكرة أو يتحرك عقلهم برأي أو ينبض قلبهم بإحساس.

هكذا ينسحب الكتاب من حياتهم في توأدة ويسر، ويختفي التقليد

الذي عاش زمنا طويلا مع الفكر منذ كان الإنسان يقرأ على قنديل ثم شمعة حتى أصبح يسهر على ضوء مصباح مع كتاب إلى جانب موقد نار يستدفئ بها، يتثلث بكل ذلك معرفة قد تجعل منه إنسانا آخر يتزود بالقراءة ليفكر ويبدع ويتحدث، وينمي أفكاره من أفكار الآخرين.

فهذه وسيلة من وسائل الاتصال التي طاردت الكتاب فنصبت له محرقة لا تقل خطورة عن محرقة الماضي حينما كان وقودها حطبا وزيتا ولعنة الحاكمين...

ثم يتصاعد التحدي ضد الكتاب فتبدأ أدواته تنسحب لتترك الفرصة لشريط أو قرص كهربي يحتوي الكتاب في تسجيل غير منظور ولا مسموع. يختفي القلم والورق والمداد - السائل والحاف - ليصبح الكتاب إشارات لا تناولها اليد ولا تبصرها العين ولا يتحرك معها العقل بحركتها إلا من خلال آلة قارئة حجبت الآلة الكاتبة يحاور الإنسان فيها الكتاب والكاتب. وهي تمده بكل ما يريد من كل ما يريد الآخرون أن يمنحوه ويفرضوه بالحاجة إليه. الكتاب القديم لم يكن يفرض نفسه إلا عن طريق التجاوب بين الكاتب والقارئ، وما يكتب اليوم في الأقراص الكهربية أو يذاع عن طريق التلفاز لم « الانترنيت »يفرضه عليك الآخرون دون اختيار منك، لأنك مضطر لحاجتك إلى « المعلومة » فلن تجدها في غير ما يسجل عن بعد، وتأخذه - لا تقول تقرأه - عن قرب. وبذلك تصبح أسير الكلمة التي يريدون أن يأسروك بها.

كانت الصحيفة إلى أجل قريب - والكتاب من قبلها - تستعمل للتضليل والتوجيه، أحيانا إلى الخير، وفي كثير من الأحيان إلى الشر والضلال بدل الاستقامة. لم تعد الصحيفة تكفي، لأن نطاق انتشارها ضاق عن أن يتسع للملايين وعن بعد. اليوم يكتب الصهيونيون - مثلا - كتابا أو تقريرا ضد العرب، أو أي بلاد عربية، يكتب خصوم الإسلام كتابا أو تقريرا ضد الإسلام والمسلمين يدخلونه في محطة الآلة اللاقطة عن بعد فيقرأه الآخرون في كل أنحاء الدنيا، ويصبح « العلم » الذي يعتمده المحالون لأنه جاءهم عن طريق آلة « ساحرة » لم تكلفهم الكثير من المال أو الجهد أو الوقت. بكسل عقلي يستعملون المِنّة في الآلة فتصبح علما لأنها مرت من آلة علمية تقنية. وكانوا من قبل يتشككون في صدق المعلومات، ولو كانت مكتوبة رغم سحر الكلمة المكتوبة المرقونة وقدرتها على الإيحاء.

الكتاب سيختفي وتختفي المكتبة والخزانة لتجمع كل معارف الدنيا في أقراص تختزن الكلمات والكتب والمقالات والتقارير والمحاضرات والدروس والمعادلات الرياضية و...

كل ذلك في مصلحة العلم والمعرفة وتعميم الثقافة وعولمتها ؟

قد يكون قدر العولمة تسير في طريق توحيد المعارف التي تمنحها الدولة الأقوى كما تمنح المال والعتاد والمصنوعات منتصح وتشيع الأفكار. فتختفي غيرها من الأفكار والنظريات في اتجاه عولمة الفكر، وتمنحها باللغة الأقوى فتختفي غيرها من اللغات لأنها لغات القوم الأضعف قد تصلح للحديث اليومي عن العطش وعن الجوع والعراء والبؤس وظلام الخباء، ولكنها لن تصلح بعد اليوم - ذلك اليوم - لتكون لغة العلم - إنتاجا واستهلاكاً - ولا لغة الثقافة والأدب والفن. كل تراث الإنسان الفني سيختفي إلا تراث البلاد التي ستسيطر على الآلة التي تبث تراثها.

كان الكتاب يكتب على جذوع النخل أو عظام الحيوان أو يرسم على الأحجار أو على ورق البردي وبالصمغ المدون أو الحبر السائل ثم الجاف، وكان ينقل عن طريق الإنسان والحيوان ثم عن طريق البحر ثم الجو، ويقرأ في غيرها بلاد من بلاد العالم إليه ليصحح معلوماته أو يزيد من استفادته. واليوم - ذلك اليوم - سيختفي هذا الكتاب لتتحدث الآلة لمن يحسن استقبال حديثها. أما غيرهم فسيظلون في جهلهم يعمهون.

قد أكون متشائما، وقد يحسبني قارئ هذا الحديث غير متفائل بمصير الكتاب. ولكني في حيرة من أمري وأمر الآخرين من بعدي. أحسب حبيبي لهذا الذي صاحبني كل هذه السنين من عمري (الكتاب) هو الذي يملي علي هذه الحيرة. ولكنها الحيرة التي ما أظن أني سأخرج منها إلا أن أعود شابا أستفتي « الأنترنيت » عليها تمدني بالمتعة والراحة والاطمئنان التي أجدها جميعا في كتاب لمسته الورقة وسداه المداد وروحه الكلمة.

Mohamed Fassi - Fihri

Barbelés pour la Méditerranée

Nouvelles

138 pages (10.5 x 20.5) 35 DH